فهرس

صفحة

الفصل الأول :

الرحمة ، مهجته ١٣

الفصل الثانى :

. . والعدل ، شريعته ٥٧

الفصل الثالث :

. . والحب ، فِطْرَتُه ٩٣

الفصل الرابع :

. . والسمو ، حرفته ١١٥

الفصل الخامس :

. . ومشاكل الناس ، عبادته ١٣٣

مصادر الأحاديث

• الصحيحان :	للإمامين : البخارى ومسلم
• مسند الإمام أحمد :	للإمام أحمد بن حنبل
• الترغيب والترهيب :	للحافظ المنذرى
• تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول :	للحافظ ابن الديبغ الشيبانى
• رياض الصالحين	للإمام النووى
• الطبقات الكبرى	للإمام ابن سعد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لو لَم يكن «محمد» «رسولاً» لكان «إنساناً» فى مستوى الرسول . . ! !

ولو لم يتلقَّ الأمرَ من ربه : (« يأيها الرسولُ بَلِّغ ما أنزل إليك) لَتَلَقَّاهُ من ذاتِ نفسه ، يأيها الإنسان بلِّغ ما يعتملُ فى ضميرك . .

ذلك أن «محمدًا الإنسان» جاوزَ نُضجُه وارتقاؤه كُلَّ تخوم الذات وحدودها ، ولم يكن ثمةَ سبيل لوقف انتشار هذا النضج ، وهذا الارتقاء خارج الذات ، وخارج البيئة . . بل خارج كل زمان ، وكل مكان . .

إن عظمته التى فرضت نفسها ، ونادت إليها ولاء المؤمنين ، وإعجاب المعرضين . . .

عظَمته ، التى لبثت زهاء ألف وأربعمائة عام ، وستظل دوْماً ، ترسل ضياءها وسناها . . وتبثُّ فى ضمير الزمن رشدها ، ونُهاها .

عظمته هذه ، تنبُع – أول ما تنبع – من إنسانية «محمد» .. من الطريقة التى كوَّن بها نفسه ، ووجدانه ، وعقله تحت عين الله ورعايته . . ومن الموقف الذى اختاره والتزمه ، تجاه الكون ، والناس والحياة . .

والحق أن «محمدًا الإنسان» شىء باهر .. فإذا التقى به «محمد الرسول» فإن عظمته آنئذ تجاوز كل حدود الثناء . . !

ولكن ، لماذا أضع «الإنسان» مقابل «الرسول» . . ؟؟ أو ليس «الرسول» إنساناً . . ؟؟

بلى . . إن «الرسول» إنسان ؛

وإنما أريد بصفة «الإنسان» هنا ، التنبيه إلى أننى أركز الحديث على الطابع البشرى المحض الذى يشترك فيه «محمد» مع غيره من الناس .. والذى تفرَّق فيه على من سواه من الناس .

فهذا الطابع البشرى بكل انفعالاته ، وبساطته ، وتلقائيته – هو الذى يُبهجنا ويَبْهرنا ، لأنه من صنع واحد منا .. واحد مثلنا .. ومن ثَم ، فهو يمنحنا ثقة بأنفسنا ، واحتراماً عظيماً لبشريتنا التى تنجب مثل هذا الطراز الرفيع من الخلق ..

* * *

ولست أدرى ، هل هذا كتاب عن «محمد» أو هو كتابٌ لـ «محمد» . . عليه صلاة الله وسلامه .

فلقد بدأت التفكير فى الكتاب معتزماً أن أتتبع أحاديث «الرسول» ومواقفه ، وأختار منها ما يكوِّن الصورة التى أريدها .. صورة «محمد» الإنسان ، دون أن أقحِم نفسى على هذه المختارات مدركاً أن مجرد

تنسيقها ، ووضع كل حديث فى مكانه من الصورة ، سيكون فصل الخطاب ..

بيدَ أنى لم أكدْ أبدأ ، حتى وجدت أحاديث «الرسول» عليه السلام ومواقفه ، تعكس على فِكره خَبْأها النفيس ، وحكمتها المُستَثيرة . .

وهكذا سمحتُ لنفسى أن أقفوَ أثرها ، وأستنبط منها مَعَالم النموذج الذى يشكِّل على نحوٍ جليل ، إنسانيات «محمد» الباهرة . .

وسمحت لنفسى كذلك أن أسطر ما أفاءته علىَّ هذه الأحاديث والمواقف من فهم ومعرفة . .

ولقد آثرت الاقتصار فى الاستشهاد ، على أحاديث الرسول وتصرفاته ؛ لأنها أدلُّ على إنسانية صاحبها ؛ ولأنها تصوِّر – تماماً – تلقائية العمل والنزوع لديه .

* هنالك ، نرى الإنسان الحانى ، الذى لا تُفلت من قلبه الذكىّ شاردةٌ من آمال الناس وآلامهم ، إلا لبَّاها .. ورعاها .. وأعطاها من ذاتِ نفسه كلَّ اهتمام ، وتأييد . .

* نرى الإنسان الذى يكتب لملوك الأرض ، طالباً إليهم أن ينبذوا غرورهم الباطل .. ثم يُصغى فى حفاوة ورضاً ، لأعرابى حافى القدمين يقول فى جهالة : «اعدل يا محمد ، فليس المال مالك ولا مال أبيك . . » ! ! !

* نرى العابد الأوّاب ، الذى يقف فى صلاته ، يتلو سورة طويلة من القرآن فى انتشاء وغبطة ، لا يُقابض عليها بملء الأرض تبجاناً وذهباً .. ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع ، كانت أمه تصلى خلف

« الرسول » فى المسجد : فيضحى بغبطته الكبرى ، وحبُوره الجيَّاش ، وينهى صلاته على عجَل ، رحمة بالرضيع الذى يبكى وينادى أمه ببكائه ... !!!

* نرى الإنسان الذى وقف أمامه – صاغرين – جميع الذين شنوا عليه الحرب والبغضاء ، ومثَّلوا بجثمان عمه الشهيد « حمزة » ومضغوا كبده فى وحشية ضارية ؛ فيقول لهم : « اذهبوا ؛ فأنتم الطلقاء » .. !!!

* نرى الإنسان الذى يجمع الحطب لأصحابه فى بعض أسفارهم ليَستوقِدوهُ ناراً تنضج لهم الطعام .. ! !

* والذى يرتجف حين يبصر دابّة تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق ! !

* والذى يحلب شاته .. ويَخيط ثوبه ... ويَخْصِف نعله .. ! !

* والذى يقف بين الناس خطيباً فيقول : « من كنت جَلدتُ له ظهراً ؛ فهذا ظهرى فليقْتدْ منه » ... ! !

أجل .. نرى الإنسان – أبهى ، وأنقى ، وأسمى ما يكون الإنسان .

* * *

فلْنقترِب فى تَهلُّل .. ولنقرأ فى أناة ..

واعلموا يا من تطالعون الآن هذا الكتاب – أنكم تعيشون لحظات مُترعة بغبطة الحياة ، مع إنسان ورسول ، رفع الله به قدر الحياة .

الفصل الأول

الرَّحمَة منهجُه

إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة

يتيم . . .

جعل الله اليُتْمَ له مهْداً . .

وحين كان أترابه يلوذون بآباء ضم ، ويمرحون بين أيديهم كطيور الحديقة . . كان « محمد » يقلب وجهه فى السماء . . .

لم يقل قط يا أبى . . لأنه لم يكن له أب يدعوه . ولكنه قال كثيراً ، وقال دائماً : يا ربى . . . ! !

أىُّ سر فى اليتم حتى يختاره الله لأعظم حاملَيْن لكلمته ، مُبلِّغين لرسالته — المسيح . ومحمد . . . ؟ ! !

أجَل ، فالمسيح أيضاً كان يتيماً . وحين جاء الدنيا لم يجد له أباً . . بل لقد أنبئ أنه لم يكن له أب على الإطلاق .

وحين كان أترابه كذلك يباهون بآبائهم ، ذهب هو يباهى بخير أب ، فيشير بكفه المضيئة إلى فوق . .

ويقول : — أبى . . الذى فى السماء — . . ! !

تُرى . هل اختار الله لها اليُتم . ليفجِّر الرحمة فى نفسيها تفجيراً . . ؟

ربما . . ولنعد لحديثنا . .

وَلْنَمْضِ مع « محمد » فى رحمته . وإنها لرحمة تهز الألباب .

والرحمة عند « محمد » لم تكن « رَدَّ فعل » لبتمه . . بل كانت « فعلا » مُتسقاً مع وجوده الذى استهل يتيماً .

إنها رحمة الأقوياء الباذلين ، لا رحمة الضعفاء الباسين .

ومَنْ أقوى بين الأحياء جميعاً — من اليتيم الذى يواجه الوجود وحده . . وينهض بالعبء وحده . . ويخفى من حياته « العائل » ، ليظهر فيها « الرجل » . . ويملأ الفراغ كله . وينمو تلقائيًّا كالشجرة الباسقة ، ويستمد من ذاته أبوَّة ذاته ؟ ! !

أجل ، إن اليتم لأجَل مصادر العظمة شأناً حين يوافى طفلا بحمل استعدادا عظيما . .

ولقد كان محمد كذلك . . .

و« محمد » القوىُّ يمارس الرحمة ممارسة مؤمن بها ، متضمخ بعطرها ، مخلوق من عجينتها .

وإنه — عليه صلاة الله وسلامه — ليهتف بها هُتافاً كله ذكاء وحكمة .

وحين نُطوِّف حول أحاديثه عن الرحمة ، وموافقه مع الرحمة ، نجد شيئاً يشبه المعادلات الرياضية . فهو لا يزجى عن الرحمة مجرد حديث ينعش العاطفة أو يسعف فى العزاء . .

إنما يتحدث عنها حديث خبير بقيمتها ، ويتتبع كل مواطن الحاجة